ملامح من
أدب ومسرح الخيال العلمي

د. هيثم يحيى الخواجة *

يؤكد الدارسون والباحثون أنه باعتبار الخيال العلمي وسيلة لفهم العالم من خلال التفكير والتأمل والتصوير وفن الحكي، فإن ذلك يقرب أصوله من علم الميثولوچيا أو علم الأساطير، ومع ذلك فإن المشتغلين في مجال الخيال العلمي، سواء أكان ذلك في العالم أم في الوطن العربي، ينحازون لإيمانهم بضرورة توظيف الخيال العلمي في الأجناس الأدبية؛ خاصة وأن عصرنا عصر تطور العلوم وظهور المخترعات الباهرة.

فما الخيال العلمي؟

وعلى الرغم من أن التعريف البسيط للخيال العلمي هو توقُّع أو تنبُّؤ ما يمكن أن يحدث في المستقبل عبر الفن والإبداع، فلا بد من أن نورد التعريفات المهمة، فقد جاء في معجم أكسفورد الوجيز "أدب الخيال العلمي أدب مملوء بالخيال يقوم على اكتشافات علمية أو تغيرات بيئية مفترضة، ويعالج عادة رحلات الفضاء والحياة على الكواكب الأخرى" [١].

ويُعرِّف الدكتور مجدي وهبة الخيال العلمي في معجم المصطلحات العربية في اللغة والآداب فيقول: "إنه يعالج بطريقة خيالية استجابة الإنسان لكل تقدم في العلوم والتكنولوچيا"[٢].

وجاء في تعريف دائرة المعارف الأمريكية "أدب الخيال العلمي أدب خيالي يشكل فيه أحد المنظورات العلمية عنصرًا من الحبكة أوالخلفية" [٣].

وتشير دائرة المعارف البريطانية الصغيرة "إلى أن أدب الخيال العلمي يعالج اكتشافًا أو

* كاتب وناقد سوري.

تطورًا علميًّا يكون – سواء وُضع في المستقبل أم في الحاضر الخيالي أم في الماضي المفترض – متفوقًا على ما هو موجود أو ببساطة مختلفًا عنه"[٤].

ويعود ظهور إبداع الخيال العلمي إلى فترة تاريخية قديمة اختلف الباحثون في الإجماع على البداية، وكل ما يمكن قوله: إن أدب الخيال العلمي واكَب بقية الأجناس الأدبية وتطورها مع الزمن، سواء أكان ذلك في العالم الغربي أم في الوطن العربي، باعتباره الابن الشرعي لعصر التطوير والتقدم والمخترعات الحديثة، ويمكن أن يتحدث عن كتاب ألف ليلة وليلة الذي يُعد من الكتب القديمة جدًّا التي تطرقت إلى الخيال العلمي، كما يمكن أن نتحدث عن الذين أعطوا وألَّفوا في الخيال العلمي في الوطن العربي.

ومن الذين عُرفوا في هذا المجال:

لوقيان السميساطي أو لوقيانوس السوري الذي يُعد رائدًا في هذا المجال، حيث أبدع في القرن الثاني عشر أعمالًا تنتسب إلى الخيال العلمي، من مثل (الحرب بين سكان الأرض وسكان القمر)، وتعد حياة الخيزران في الفلكلور الياباني في القرن العاشر للميلاد وبعض كتابات ابن النفيس في القرن الثالث عشر للميلاد، من الخيال العلمي.

ومع مرور الزمن والتطور في العصر الحديث، بدأ ينضج هذا الأدب ويرى النور في القرن التاسع عشر، باعتباره قرن الاكتشافات العلمية والصناعية.

فظهر توفيق الحكيم (رحلة إلى الغد – الطعام لكل فم)، والكاتب نهاد الشريف والكاتب طالب عمران، وغير هؤلاء الذين أثبتوا تفوقهم في هذا المجال.

وكتب عند الغرب في الخيال العلمي النرويجي هو چوستين جاردر إلى حد وصلت كتبه إلى عشرة كتب، كما كتب لوشيان في القرن الثاني. وفي القرن السابع عشر، ظهرت رواية ميكروميجاس للكاتب الفرنسي ڤولتير، وفي الوقت نفسه ظهرت روايتا مغامرات جاليڤر للكاتب چوناثان سويفت وصومنيوم للكاتب يوهانس كبلر، ثم ظهرت ماري شيلي (روايتا فرانكشتاين – الرجل الأخير)، وظهر المؤلف الأمريكي إدغار آلان پو، وچول ڤِرْن وغيرهم كثر.

وهنا لا بد أن نذكر أنه في مطلع القرن العشرين ظهر كُتاب اهتموا بالخيال العلمي، من مثل إيزاك أزيموڤ، وديمون نايت، ودونالد إيه، وولهايم فريدرك بول، وچيمس يلش، وچوديث ميريك، وروبرت هينلين، وآرثر كلارك، وڤان ڤوجت، وستانيلويم... إلخ

وتعدُّ قصة رحلات جاليڤر المنشورة في عام (١٧٢٦م) للكاتب الإنكليزي چوناثان سويفت

واحدة من أوائل أعمال أدب الخيال العلمي، بجانب قصة ميكروميجاس (١٧٥٢م) للكاتب والفيلسوف الفرنسي ڤولتير، وقصة صومنيوم التي كتبها يوهانس كبلر بين عامَيْ (١٦٢٠-١٦٣٠م)، واعتبر كل من إسحاق أزيموڤ وكارل ساغان هذه القصة كأول قصة خيال علمي، وهي تصور رحلة إلى القمر وكيفية مشاهدة حركة الأرض من هناك، ومثال آخر هو قصة (نيلز كليم الذي يسافر إلى جوف الأرض) للكاتب النرويجي لودڤيج هولبيرج؛ وكذلك رواية فرانكنشتاين (١٨١٨م) للكاتبة الإنجليزية ماري شيلي، حيث يَعتبِر كاتب الخيال العلمي الإنكليزي برايان ألديس بدوره هذه الرواية كأول عمل في الخيال العلمي.

وبعد تطور الرواية في القرن الثامن عشر كشكل أدبي، ظهرت كتابات ماري شيلي في أوائل القرن التاسع عشر، مثل فرانكنشتاين والرجل الأخير والتي ساعدت على تحديد شكل رواية الخيال العلمي، وفي وقتٍ لاحقٍ كتب إدغار آلان پو قصة عن رحلة القمر، فظهرت المزيد من الأمثلة طوال سنوات القرن التاسع عشر [٥].

ضرورة وأهمية الخيال العلمي

من البديهي ولوج فن الخيال العلمي بوابات الإبداع بسبب الأهمية؛ لارتباطه بمواضيع ومآلات وضرورات العصر الحديث، ولأنه يعكس قدرة الإنسان على الاختراع من جهة وتطلعه ورؤيته لما سيفعله، وما سيحدث في المستقبل، باعتبار أن الخيال العلمي وسيلة لفهم العالم من خلال التكهُّن ورواية القصص وعرض المسرحيات.

وإذا كانت جذور أدب الخيال العلمي (القصص الخاصة) تقود إلى علم الأساطير والميثولوچيا، فإن أدب الخيال العلمي تطور كثيرًا عبر الزمن، ووصل إلى مستوًى مهم في الإبداع، ودليلنا على ذلك وجود كُتاب مُهمِّين في العالم، وما يتركه من أثر في النفوس إضافة إلى حالة التحريض على الاختراع والإبداع والإنجاز من أجل المستقبل.

أذكر من هذه المسرحيات على سبيل المثال لا الحصر:

مسرحية: "إنسان رسوم الآلي"، للكاتب كارل تشابك ١٩٢٠.

ومسرحية: "الآلة الحاسبة"، لألمرايس ١٩٢٣.

ومسرحية: "آه لو عرف الشباب"، توفيق الحكيم.

ومسرحية: "رحلة إلى الغد"، توفيق الحكيم.

ومسرحية: "الطعام لكل فم"، توفيق الحكيم.

ورواية: لقاءات في قمة العالم فونيتل (القرن الثامن عشر).

وقصة: رحلات جاليفر لـچوثان سويفت (١٧٢٦).

وقصة: ميكرو ميجاس للكاتب الفرنسي ڤولتير (١٧٥٢).

وقصة: صومنيوم، للكاتب هانس كبلر بين عامَيْ (١٦٢٠ – ١٦٣٠).

ومسرحية: شاعر على القمر، للكاتب أسعد مكاوي.

إن للخيال العلمي تأثيره السحري في نفس الأطفال، وإن تجويد العمل الإبداعي الذي يتضمن الخيال العلمي يعني الكثير لما له من تأثير في فكر وخيال وشخصية الطفل.

وبناء على ما تقدم، فإن الدعوة للنهوض بأدب الخيال العلمي للطفل لها مُسوِّغاتها الكثيرة، ومن أهم هذه المسوغات مواكبة الطفل لواقعه ومستقبله بثقة وقوة.

سمات الإبداع بالخيال العلمي:

١- الإطار الزمني مختلف، فهو ليس ماضيًا ولا حاضرًا.. هو المستقبل بالذات.

٢- بعض الشخصيات خيالية أو روبوتات أو آلات أو مسوخ... إلخ.

٣- تتضمن تكنولوچيا متوقع الاعتماد عليها، مثل (الذرَّة – الليزر وغير ذلك).

٤- بعض القوانين والفرضيات تتجاوز المتداولة أو المعروفة.

٥- السفر عبر الأزمان.

٦- الاهتمام بسرعة الضوء.

٧- الدوران في فلك سمات وفاعلية العالم ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

٨- التخاطر.

٩- التحكم بالأشياء.

١٠- العصف الذهني.

١١- القدرات الخارقة.

١٢- قصر المسافات.

١٣- القرية عالم صغير.

١٤- تنوع الأمكنة واختلافها.

١٥- تنوع واختلاف غذاء المستقبل.

١٦- ازدياد الأنانية.

١٧- ارتفاع حدَّة الصراع بين البشر.

١٨- اتساع وكثرة الدمار.

١٩- المعاناة من البِطالة.

٢٠- ارتفاع قيمة العقل.

٢١- نظرات تفاؤلية وأخرى تشاؤمية.

٢٢- البحث عن العيش خارج إطار العصر.

٢٣- الاستناد إلى المُخيِّلة الإبداعية باعتبارها المجال الخصب لإنجاز النص.

٢٤- نص الخيال العلمي يُراوح بين الخيال الإبداعي والخيال التوقعي.

٢٥- معرفة أن الخيال الفنتازي والخيال الأسطوري يختلفان عن الخيال العلمي مع أنه يمكن الاستفادة منهما.

٢٦- الأخذ بعين الاعتبار التقدم التكنولوچـي.

٢٧- الإدراك الدقيق لثقافة الطفل وقدرته على الفهم والاستيعاب.

٢٨- عالم الأطفال عالم مُعقَّد ولا بد من الإحاطة به والعلم بحيثياته.

٢٩- توظيف الخيال بأسلوب بعيد عن الفجاجة.

٣٠- أن تكون الحلول الافتراضية ذات رؤية مستقبلية لصالح المجال العام.

٣١- يُعد الخيال الاسترجاعي مرجعًا للكاتب بغاية التوظيف وتحقيق الهدف الأعلى من النص الإبداعي.

٣٢- أن تكون مغامرات الخيال العلمي ممتعة ومدهشة ومثيرة.

٣٣- تداخل العالمين: المرئي واللامرئي من دعامات نص الخيال العلمي.

٣٤- أن نحاذر تقديم بعض القصص المشوهة، أو التفسيرات الخيالية السلبية أو الحقائق العلمية الخطأ؛ لأن ذلك يضر بالطفل فيعيش في دائرة من الأوهام.

٣٥- الابتعاد عن كل ما فيه إجرام وقتل ودم وأنماط سلوكية مضرة.

٣٦- مقاربة القيم والخصائص الأخلاقية والسلوكية التي تلائم الأهداف التربوية.

٣٧- الالتصاق بالحقائق العلمية.

٣٨- أن نهتم بتنمية قدرة الطفل على التخيُّل وتعويد عقله على التفكيرين: النقدي والتأملي والتدريب ومواجهة المشكلات وحلها.

٣٩- الابتعاد عن الخيال المستحيل.

٤٠- الاهتمام بالخيال العلمي الذي يُسخَّر لخدمة الإنسانية خدمة حقيقة.

٤١- يبدأ الخيال العلمي من حيث ينتهي العلم.

٤٢- هناك فرق بين الخيال العلمي والخيال الأدبي.

٤٣- ضرورة التفريق بين الخيال العلمي والخرافات؛ لأن الخيال العلمي يتكئ على الحقيقة العلمية.

مسرح الأطفال وأدب الخيال العلمي

عندما نتحدث عن مسرح الطفل وأدب الخيال العلمي لا بد أن ننطلق من مفهوم دقيق لهذا النوع من الأدب مهما اختلفت الآراء حول المصطلح، ومهما تعددت المصطلحات، وبناء على ذلك فنحن نتحدث عن مسرح يأخذ الطفل إلى عوالم يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفية للإنسان، والمعقول بغير المألوف؛ بهدف تحقيق المتعة والدهشة والإثارة وطرح الأسئلة الاستفزازية والتفكير النقدي والتأملي والتحليق في فضاءات وعوالم مبهرة، وطرح توقعات مبنية على المنطق العلمي الذي قد يطال البشرية في زمنٍ ما قد يكون قريبًا وقد يكون بعيدًا.

من المفيد - هنا - الإشارة إلى ضرورة أن يكون المحور الإنساني هو السائد في إبداعات الخيال العلمي، وأن تدور الأعمال في فلك التجريب وتجاوز التقليدي والمُتكلِّس، هذا ما فعله ستنيواف ليم أهم المسرحيين البولنديين في مجال الخيال العلمي، الذي حاول - أيضًا - ومن خلال أعماله الإبداعية الإجابة عن الأسئلة القلقة والمستفزة للإنسان، من مثل فهم سر الوجود وما وراء الطبيعة، وكيفية الوصول إلى الحقيقة النهائية...

ولما كانت - في بعض الأحيان - شخصيات العمل الإبداعي ليست إنسانية، فلا بد من إلباسها في مسرح الأطفال... اللبوس الإنساني، باعتبار أن أدب الخيال العلمي يظهر عالمًا خالصًا، وفي كثير من الأحيان مُتخيَّلًا ومتوقعًا.

وهذا لا يعني أن المسرح أو أدب الخيال العلمي منغلقٌ على نفسه أو يتأطَّر ضمن حدود معينة.. إنه أدب لا يعرف الانغلاق... أدب يتخطى الحدود المرسومة ليعانق الآتي بمخترعاته وما يتفتق عنه من أمور.

وهذا الرأي يبدو مشجعًا مع الإبداع العلمي، الذي يرسم عوالم متخيلة يمكن أن تصير واقعًا في المستقبل؛ أي أنه ليس أدبًا شائعًا وإنما أدب يتبنى ظواهر لها فضاءاتها، وتثير اهتمامًا كبيرًا سواء أكان ذلك للكاتب أم للمتلقي.

وعندما نُبرز من خلال الخيال العلمي دور الشر وما له ونبرز فوائد الخير، فإننا بذلك نقترب من ملامسة قضايا المجتمع مهما كان الإبداع مغريًا.

وعلى الرغم من أن نتاجات الخيال العلمي عند الغرب أوسع وأنجز وأخصب من النتاجات العربية في هذا الفن نقول: إن هذا الأدب – على حد تعبير ستنيواف ليم - "لم يصل بعد إلى مستوى أهمية تلك الظواهر الخطيرة التي تهددنا وتظاهر العالم الآلي الجديد، حيث يتصف الموقف الأدبي برُمَّته بالتناقض، فنرى هذا النوع الروائي والمسرحي الجديد يمتص قدرات مُؤلِّفيه، فترتفع قيمة هذه الأعمال وأهميتها على مستوى الأعمال الأدبية الكبرى التي يؤلفها كُتاب لا يدركون أنهم يمثلون..."[٦].

ولا بد أن نعترف بصعوبة الكتابة في مجال الخيال العلمي؛ لأن أدب الخيال العلمي يحتاج إلى الحذر وإلى المعرفة العلمية وإلى الكثير من التبصير والتبصُّر والنظر إلى المستقبل من خلال الحاضر، عبر رؤية تحديد أُطُر التصور والتحكم بعناصره ومفاصله.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الروايات العلمية تتجاوز جنسها الأدبي، لتغدو وثيقة تسجيلية وممثلًا للعصر، أدركنا حجم المهام التي تقع على عاتق مؤلف مسرح أو قصة أو رواية الخيال العلمي.

بمعنى آخر إن أدب الخيال العلمي يحتاج إلى كاتب خلَّاق يُقيِّم مراحل الظواهر الحياتية التي تستدعي وقوف الإنسان في وجه الشر أو حرصه على دعم الخير بأنواعه، وما دام العالم يعيش تهديدات متنوعة ومختلفة بسبب مخترعات تدميرية واكَبت النهضة في العصر الحديث الذي شهد تقدمًا مُطَّردًا للتكنولوچيا، فقد صار لزامًا على كُتاب الخيال العلمي أن يتحدثوا من خلال الخيال العلمي عمَّا يمكن أن يُخترع في سبيل إنسانية الإنسان.

إن الحضارة الحديثة على الرغم من الإيجابيات التي لا تعد ولا تحصى حملت معها متغيرات كثيرة وفسادًا أخلاقيًا، فإن من واجب الكاتب المسرحي أو القاصّ أن يتعرض إلى ذلك في إبداعه؛ خاصة إذا أكدنا أن الواقع الافتراضي أو الفعلي يتحمل الكثير والكثير.

ومع أن بعض الكُتاب الذين خاضوا تجربة الإبداع بالخيال العلمي فقدوا البوصلة فضاعوا

بين التقدم العلمي السريع اللاهث الذي يدمر جوانب مهمة من عالمنا وبين الإيمان بثقافتنا الروحية وتراثنا الإنساني وعقائدنا، ومع ذلك يمكن القول في هذا المجال عندما يتحدد هدف التكنولوچيا من قبل المخترع، فإن ذلك يوضح خيرها من شرها وأكبر مثال على ذلك الذرَّة التي تستخدم للخير وللشر.

إن المكتشفات الحديثة مثيرة للغاية، ومن هذا المنطلق يمكن الاعتماد عليها من أجل التنبُّؤ بالمستقبل الذي لا يعرف أحدٌ ماذا يخبِّئ للبشرية

وإذا كان تراثنا العربي مليئًا بالأساطير والخرافات والحكايات الفنتازية، فإن هذا الموروث مهَّد للخيال العلمي بصورة أو أخرى، ويمكن أن أضرب مثالًا واحدًا وهي حكاية (علي بابا والأربعين حرامي)، حين يخاطب علي بابا الصخرة بلفظة "افتح يا سمسم" فتفتح الصخرة.

نخلُص إلى ما يلي:

١- مسرح الخيال العلمي ضرورة لازمة في حياتنا وكذلك أدب الخيال العلمي بشكل عام.

٢- الاستناد إلى المكتشفات العلمية الحالية لتكون منطلقًا من أجل التنبؤ بالمستقبل، خطوة صحيحة ودقيقة للوصول إلى أدب خيال علمي ناهص.

٣- مسرح الخيال العلمي يهدف إلى أمرين اثنين:

أ - فهم الصراع الإنساني مع الآلة.

ب - طرح القضايا الإنسانية في مواجهة استكشافات الإنسان.

٤- ضرورة النظر إلى الحاضر دون إهمال الماضي والمستقبل.

٥- روح الأمل في الأجيال.

٦- الدفاع عن مستقبل الإنسانية بالوسائل المتاحة.

٧- من الضروري التشجيع والتحفيز على أدب ومسرح الخيال العلمي.

٨- المزيد من الندوات والمحاضرات والاستراتيـچيات والخطط لدعم أدب ومسرح الخيال العلمي.

٩ - الاعتماد على الوسائل الإعلامية المختلفة للتعريف والتثقيف بأهمية أدب ومسرح الخيال العلمي.

١٠- اعتماد مهرجانات خاصة بأدب ومسرح الخيال العلمي.

١١- اعتماد جوائز تشجيعية لدعم أدب ومسرح الخيال العلمي.

المراجع والهوامش

١- د. عبد المحسن صالح، التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٤٨، الكويت، ديسمبر ١٩٨١م.

٢- السابق نفسه.

٣- السابق نفسه.

٤- السابق نفسه.

٥- أدب الخيال العلمي، الموسوعة العربية.

٦- ستنيواف ليم، مسرح الخيال العلمي، ترجمة د. هناء عبد الفتاح، المهرجان القرائي، مكتبة الأسرة ص ١١، العام ٢٠٠٠م.

المصادر

١- تعريف ومعنى خيال بالعربي في معجم المعاني الجامع، المعجم الوسيط، اللغة العربية المعاصرة، معجم عربي عربي - صفحة ١.

٢ - منظمة المجتمع العلمي العربي، أدب الخيال العالمي، تعريفه وسماته.

٣ - أدب الخيال العلمي / الموسوعة العربية.

٤- د. عصام بهي، التفكير العلمي في مسرح توفيق الحكيم.

٥- صلاح معاطي، الخيال العلمي بين العلم والخرافة.

٦- ستنيواف ليم، مسرح الخيال العلمي، ترجمة د. هناء عبد الفتاح، القراءة للجميع، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠م.

٧- د. طالب عمران، البحث عن عوالم أخرى، سلسلة الخيال العلمي، دار الفكر ٢٠٠٤م.